الدولـــــة العربيـــــة
والوطـــــن العربـــــى

obeikandl.com

obeikandl.com

أعقب اضمحلال الأمة العربية مالم يكن منه بُدٌّ ، إذ أحدق بها أعداؤها من كل جانب ، كلٌّ يبغى نصيباً دسماً من هذا الكيان المستباح .

كان السلطان العثمانى فى « الآستانة » مثخناً بالجراح ، والوصف الذى اشتهر به هو الرجل المريض ! و المتربصون به الوفاةَ كثير !

أما التركة التى يراد اقتسامها فهى أقطار العروبة والإسلام كلها .

ولم ينتظر الطامعون حتى يؤذن بوفاة الخلافة المعتلة فيلتهم كلٌّ سهمه فى الميراث الذى لا صاحب له ، بل بدأ الخطف الجرىء هنا وهناك ، وسرى العدوان على أجزاء الدولة ، وعلى أرجاء الدولة الإسلامية عموماً .

ولم تمض فترة طويلة حتى كانت دول أوربا على الإجمال قد احتلت مساحات هائلة من العالم الإسلامى ، ووضعت يدها على مفاتيح البحار ، وعلى مناطق شديدة الحساسية فى الهجوم والدفاع .

وتولّى كِبرَ هذا العدوان السافر انجلترا وفرنسا .

اغتصبت انجلترا وادى النيل كله : مصر ، والسودان ، وأوغندا ، وما يقترب من الوادى فى المناطق الحارة .

واستولت فرنسا على الشمال الإفريقى : تونس ، والجزائر ، ومراكش ، وما تحت هذه الأقطار .

وأخذت إيطاليا : ليبيا .

ومن قبل كانت هولندا قد استولت على اندونيسيا ، كما استولى الانجليز على الهند وشواطىء الجزيرة العربية كلها من الخليج الى عدن .

ويمكن القول بأن أوائل هذا القرن شهد اندحاراً للأمة الإسلامية بالغ الإهانة فادح السوء .

ومع ذلك فإن « الرجل المريض » لم يسلم أنفاسه ، وبدا كأنه يستعد لجولة أخرى يرد بها أولئك المناوشين القتلة ، ومِنْ يدرى لعله يسترد ما فقده إبان ضعفه ؟

وكان ذلك قبل الحرب العالمية الأولى إذ قرر الأتراك أن يتحالفوا مع الألمان ضد انجلترا وفرنسا وايطاليا .

وهذا التحالف كان شيئاً لا مفر منه ، بل كانت المصلحة للدولة المنكودة ، وللشعوب التى ارتبطت بها ، تفرضه وتؤكده .

فإن الألمان يرون أنفسهم أرقى من الإنجليز ، وأحق منهم بالسيادة والصدارة ، ومع هذا التفوق فإن بقية دول أوروبا خرجت دونهم بنصيب الأسد من تقسيم المستعمرات ، ومن انتهاب الأمة الإسلامية !!

فلا جرم أن الألمان يحقدون على هؤلاء الجشعين المفتاتين .

وبديهى أن يرى الأتراك فى الميدان الدولى هذا الذى يشاركهم فى مخاصمة انجلترا وفرنسا فيهرعون الى الاتفاق معه !

أليس يجمعهم شعور مشترك وصالح مشترك ؟

إن بعض الشعب فى القاهرة خرج إبان الحرب العالمية الثانية لما اقترب الألمان من « العلمين » يهتف « تقدم يا رومل » .

إنه لا يحب الألمان ، ولكنه يكره الإنجليز ومَنْ معهم ، ولذلك يرحب بكل نكبة تصيبهم .

والأتراك وجدوا فى ألمانيا سناداً قوياً لهم فى حرب يستطيعون ـ لو كسبوها ـ أن يهدموا الاستعمار الانجليزى والفرنسى ، وأن يوقفوا سَيْل العدوان الذى تعرَّض له العالم الإسلامى ، وأن يبدأوا عهداً جديداً من الإستعمار والإصلاح .

لكن الأمور سارت عكس ما يشتهون .

ولم يكن ذلك إلا لأن دسائس الإنجليز أفلحت فى تأليب الأمراء العرب على السلطان التركى .

فتولى هؤلاء بأنفسهم الإجهاز على الرجل المريض ، واستعجال موته دون بصر بما كان أو يكون .

أهداف الاستعمار :

لم يكن الضائقون بالحكم التركى قلة ، بل لعل الشعب التركى نفسه من بين الساخطين على أساليب العَسْف والقهر التى توارث السلاطين تطبيقها .

أما العربى فإن إقصاءهم عن كل سلطة عملية ، وحرمانهم من شارات السيادة التى كفل الإسلام لهم أحفظ صدورهم ووسَّع الهاوية بينهم وبين الترك .

فإذا انضم إلى هذا الحقد الصليبى التقليدى على الإسلام وأهله ثم ما بلغته أوربا فى نهضتها الأخيرة من تفوق عسكرى عرفنا أن الدولة العلية كانت فى موقف سيء ، وأن أخطاراً ماحقة تهددها وتهدد الإسلام الذى اقترن ـ للأسف ـ بها .

ولما اشتعلت الحرب العالمية الأولى دخلها الحلفاء الغربيون ضد تركيا وأملهم من ورائها بعيد المدى.

(أ) تمزيق الخلافة العثمانية ، واجتثاث جذورها من الأصول .

(ب) تقسيم تركيا نفسها ، وسائر الأقطار التى تتبعها بين انجلترا وفرنسا وروسيا .

(جـ) بعثرة الأمة الإسلامية بعثرة تنسيها ماضيها ورسالتها وتشغلها بالدفاع عن حياتها وأقواتها .

وقد عُقِدَتْ معاهدة سرية بين الحلفاء الثلاثة توضح نصيب كل دولة من تركة الرجل المريض ، والأقطار والشعوب التى ستجتاحها بعد كسب الحرب .

ويعرف هذا الاتفاق بمعاهدة « سايكس ـ بيكو » .

وعندما نشبت الثورة الشيوعية فى روسيا ، وانفصل الروس عن الحلفاء فضحوا هذه المعاهدة ، وكشفوا نيات الانجليز والفرنسيين فى اقتسام العالم الاسلامى ، وأعلنوا أنهم قد تخلوا عن هذه الارتباطات السرية .

ومطامع الإنجليز والفرنسيين لم تكتشفها هذه المعاهدة ، فقد كانت مفضوحة من قبل ، ولكن الغريب أن يجدوا من ملوك العرب مَنْ يعينهم على تحقيقها .

* * *

والخطة التى وضعها الإنجليز مبسطة ، أن يضربوا الترك بالعرب فى أثناء اشتباكهم مع عدوهم . فإذا انهار الترك بعد هذه الخيانة أصيب الإسلام فى صميمه وسقطت الخلافة التى تمثله .

وسوف يتبع ذلك طور آخر ، سوف يكفر الترك بالدين الذى ربطهم بالعرب ، وتتكون قومية تركية لا دين لها .

ويمكن أيضاً تكوين عروبة منفصلة عن الإسلام .

ومن ثَمَّ يخرج الإسلام من هذه المحنة ، وقد وقعت الجفوة بين أتباعه وكفر بعضهم ببعض ، وكفروا جميعاً بالله ورسوله .

ونحن ننظر إلى عمل الملك حسين قائد الثورة على الترك فنتساءل :
أكان هذا الرجل كافراً شنيع الكفر أو كان مغفلاً شديد التغفيل ؟

إنه عمى أو تعامى عن كل توجيهات الإسلام فى سياسته .

ولقد زعم الزاعمون أنه كان يريد تكوين خلافة عربية ، وأية خلافة هذه التى تقوم على حرب الإنجليز ؟

الإنجليز الذين احتلوا وادى النيل ، وأعطوا عشرات الوعود أن يجلوا عنه ولم يَصْدُقوا فى كلمة واحدة مما قالوا .

الإنجليز الذين قطّعوا أوصال الإسلام فى الهند وفى غير الهند ، ولايزال هذا الدين دائخاً من صنيعهم إلى الآن .

الله جل شأنه يقول :

« ولَا تَرْكَنُوا إلى الذينَ ظَلَمُوا فتَمَسَّكُم النارُ وَمَالكُم مِنْ دُونِ الله مِن أوْلِياءَ ثمَّ لَا تُنْصَرُونَ » (١).

ويقول : « يَا أيُّها الَّذينَ آمنُوا إن تُطيعُوا الَّذينَ كَفَرُوا يرُدُّوكم عَلَى أعقَابِكُمْ فتَنْقَلبُوا خاسِرِينَ ، بَلِ الله مَوْلَا كمُ وهُوَ خَيْرُ الناصِرِينَ » (٢).

ولكن الشريف الهاشمى الذى يزعم أنه ابن النبى لم يذكر حرفاً من هذا ، وكل ما ذكر أنه طالب مُلْك .

وفى سبيل مُلْكه ذبح الألوف من المسلمين على حسابه الخاص .

وقد يقال : إن الرجل ما كان يدرى . ونقول : بل كان يدرى . فقد عرَّفه جمال باشا القائد التركى بمحتويات معاهدة « سايكس ــ بيكو » التى تتضمن تقسيم العالم العربى والإسلامى بين الحلفاء .

وعرَّفه مستر « لورنس » ذلك ، وقال له محذراً : لا تثق بوعود قومى !

ولنفرض أن أحداً لم يُعرِّفه من ذلك شيئاً ، أفكان من تقاليد العروبة أو من تعاليم الإسلام أن يغدر بالترك المسلمين ، وأن يحارب إلى جانب الإنجليز والفرنسيين ؟

قد يقال : إن الترك ظلموا العرب ! وحرموهم حقوق المساواة المادية والأدبية .

ونقول : فهل يعالج ذلك بالانضمام إلى أعداء الإسلام ؟ لقد سبق أن انفرد العرب بالسلطة العامة وضنُّوا على العجم بالمساواة ، فهل ذلك يكون ذريعة كفران ، يبيح للفرس أن ينضموا إلى المجوس ؟

* * *

إننا كما رأى القراء ــ ممن يدعون إلى حكم عربى وخلافة عربية ــ وقد شرحنا

---

(١) هود آية : ١١٣ .

(٢) آل عمران آية : ١٤٩ ، ١٥٠ .

كيف ساءت أحوال الإسلام وأمته ورسالته فى ظل الترك .

غير أننا نرى فى ميدان التعليم والدعوة متسعاً رائعاً لمن أراد الإصلاح .

وقد حُرِم الموالى من الحكم أول الأمر ، فاتجهوا إلى خدمة الثقافة الإسلامية ، فصلحوا وأصلحوا وأسدوا إلى الحياة الإسلامية الخير الكثير ، فما الذى أعجز العرب عن ذلك أيام الاستبداد التركى ؟

إن الذى لا يرى له مكاناً إلا فى سُدَّة الحكم رجل تافه ، والذى لا يستطيع الإصلاح إلا فى وظائف الدولة رجل تافه .

والواقع أن حرص بعض الناس على الحكم وحده ، لا يدل على خير بقدر ما يدل على شره وأثرة وصَغار .

ونحن نجزم بأن السلطان العثمانى إذا كان فاسداً ، فإن الشريف الهاشمى لو أتيح له الحكم لكان أضلَّ سبيلاً .

وإلى القارىء الكريم فصلاً من الأحداث التى وقعت بين الملك حسين ، أيام كان والياً على مكة من قبل الترك ، وبين الدولة التى كانت فى حرب انجلترا وفرنسا وروسيا ثم سائر الحلفاء .

(١) وقد أُطلِقَتْ الطلقة الأولى فى ٩ شعبان سنة ١٣٣٤ ــ ١٠ حزيران ١٩١٦ وأُعلِنَ استقلال الحجاز عقب ذلك بقليل ، وأذاع الشريف حسين منشوراً مُسهباً بالأسباب التى جعلته يقدم على حركته ، وعدَّد من جملتها تحقيق الاستقلال العربى والخلافة العربية وما كان من تصرفات الأتراك نحو العرب الخ .

وآتت الثورة ثمرتها العاجلة بالنسبة للحجاز ، حيث أمكن التغلب على القوى التركية بسرعة فى مكة ، وإن كان التغلب على بقيتها فى الأنحاء الحجازية اقتضى بعض الوقت والجهد ، غير أن سلطة الحسين قد توطدت فى مختلف أنحاء الحجاز .

وفى ٦ محرم ١٣٣٥هـ ــ ٣ كانون الأول ١٩١٦ بويع الحسين ملكاً على

---

(١) من كتاب « الوحدة العربية » للأستاذ محمد دروزة .

العرب ، وقامت وزارة إلى جانبه لتسيير شؤون الدولة وأُبلغ الأمر لوزارة خارجية الحلفاء .

وقد اعترضت إنكلترا وفرنسا على لقب ملك العرب ، ولم تعترف إلا بلقب ملك الحجاز ، فكان هذا أول بادرة من بوادر المكر ومن أولى الصدمات الشديدة التى صُدِمَ بها الحسين .

كذلك آتت الثورة ثمرتها بعد سنتين بالنسبة لسورية . فقد تولى فيصل بن الحسين قيادة الجبهة الشمالية التى انضوى إليها كثير من ضباط وشباب بلاد الشام والعراق ، واستطاعت القوات العربية أن تزعج القوات التركية أى إزعاج بين المدينة ومَعَان أولاً ، حتى أجلتْها عن هذه المنطقة الواسعة ، ثم انتقلت إلى منطقة معان فأخذت تزعجها فيها أشد إزعاج كذلك ، حتى كادت تسيطر على معظم المنطقة إلى حوران .

ولما انكسرت الجبهة التركية فى فلسطين فى صيف عام ١٩١٨ ، وانسحبت القوات التركية منها نحو الشام فالأناضول تبعها فيصل بكتائبه ، فظلت تنسحب إلى داخل الأناضول .

وأقام فيصل بعد ذلك فى دمشق حكومة عربية شملت جميع سورية الداخلية بما فيها شرق الأردن ، وظلت قائمة نحو سنتين أى من أيلول ١٩١٨ إلى ٢٤ تموز ١٩٢٠ ، وكانت دمشق فيها مزدحم أقدام رجال النهضة العربية من شاميين وعراقيين ، وجائشة بالحركة والنشاط والآمال » .

غير أن الإنجليز ظهرت بوادر مكرهم بالحسين فى المراسلات التى جرت بينه وبينهم . فقد كانوا مبيتين المكر بأهداف آثار الثورة العربية منذ البدء ، فإنهم بينما كانوا يتراسلون مع الحسين ويقطعون له العهود بالاعتراف بمملكة عربية مستقلة كبرى ، كانوا يتفاوضون مع فرنسا وروسيا على مصير الدولة العثمانية .

وقد اتفقت الدول الثلاث فى مارس سنة ١٩١٦ على أن يكون نصيب روسيا القسطنطينية مع عدد من الأميال إلى الداخل على ضفتى البوسفور ثم الولايات

الأربع الشرقية من الأناضول المجاورة للحدود الروسية ، وعلى أن يكون نصيب فرنسا كليكيا من الأناضول ثم الموصل ، وجميع بلاد الشام ساحلاً وداخلاً باستثناء فلسطين التى اتفق على أن يكون لها إدارة دولية خاصة ، وعلى أن يكون نصيب بريطانيا جميع البلاد الواقعة بين خليج البصرة والمنطقة المخصصة لفرنسا إلى العراق باستثناء الموصل مع ثغرى ميناء عكا وما بينهما من الساحل .

ولما انسحبت روسيا من صَفِّ الحلفاء سنة ١٩١٧ بسبب الانقلاب الشيوعى فيها ولم تَعُدْ طرفاً ثالثاً ثبتت فرنسا وبريطانيا ما تم الاتفاق عليه بالنسبة للبلاد العربية ، وصار يعرف باسم « سايكس بيكو » اقتباساً من اسم المندوبين الإنجليزى والفرنسى اللذين تفاوضا باسم حكومتيهما .

ولقد كان من نصوص هذا الاتفاق أن تكون الإدارة فى بلاد الشام متنوعة فيقوم فى سوريا الداخلية التى تضم ولايات حلب والشام والموصل حكومات عربية تكون بريطانيا صاحبة النفوذ والحماية والأفضلية الاقتصادية وتقديم المستشارين والموظفين فى القسم الجنوبى الشرقى من هذه المنطقة ، الذى تقع فيه منطقة شرق الأردن الممتدة إلى حدود العراق ، وبعض أنحاء العراق الشمالية الواقعة فى نطاق الحكومات العربية ، ووصف هذا القسم بمنطقة (ب) .

وتكون فرنسا صاحبة مثل ذلك الامتياز فى القسم الشمالى الذى تقع فيه ولايات حلب والموصل والشام باستثناء منطقة شرق الأردن التى كانت متصرفية من متصرفات ولاية الشام والتى تظل إدارياً تابعة لحكومة الشام ونفوذاً لبريطانيا ، ووصف هذا القسم بمنطقة (آ) .

وتكون منطقة الساحل الشامى التى تضم جبل لبنان وولاية بيروت مع كليكية التى تضم أدنة ومرسين ولواء اسكندرونه تحت الإدارة الفرنسية المباشرة ، ووصفت بالمنطقة الزرقاء .

وتكون منطقة العراق التى تضم ولايتى بغداد والبصرة مع ميناءى عكا وحيفا وساحلهما فى فلسطين تحت الإدارة الإنجليزية المباشرة ، ووُصِفَتْ بالمنطقة

الحمراء ، أما فلسطين فقد اتفق أن يكون لها إدارة دولية باستثناء **حيفا وعكا** وعُرِفَتْ بالمنطقة السمراء .

وهكذا مُزِّقت بلاد الشام والعراق بالمؤامرة الانكليزية الإفرنسية أفظع تمزيق وأسوأه ، فكان من أشد الضربات التى وُجِّهت للحركة العربية الحديثة قبل أن يجف مداد عهد الإنكليز للحسين بالدولة العربية المتحدة ، وحينما كان هذا يتهيأ لإعلان الثورة وضم العرب لجانب الحلفاء والحرب معهم ، وهو ما تم عليه الاتفاق قبل هذه المؤامرة وما بدىء بتنفيذه بعدها بقليل .

والإنكليز هم المجرمون الأصليون فى ذلك ، هم المتعاقدون مع الحسين وقد أدى غدرهم اللئيم إلى ضياع ثورة العرب ودمائهم فى سبيل إنشاء المملكة العربية المتحدة الكبرى التى استهدفتها الحركة الحديثة » .

* * *

أصحيح أن الإنكليز هم المجرمون الأوائل فى هذه المأساة ؟ إنهم مجرمون حقاً ؟ لكن الذى يبوء بالعار الأول فى هذه القصة هم أفراد البيت الذى يزعم أنه هاشمى ، إن الإنكليز لم يزيدوا عن عصابة تشتغل بالسطو .

وإذا اتفقت عصابة على سرقة بيت ما ، واتفقت مع بعض سكانه أن يكونوا لها عيوناً وأعواناً ، فأولئك ـ لا اللصوص المحترفون ـ أَوْلَى بالإثم وأحق بالعقاب .

وقد كتب كثيرون فى الملك حسين وعَدّوه الشرارة الأولى للثورة العربية الكبرى .

ونحن نأبى أشد الإباء أن تولد الثورة العربية فى مبدأ الخيانة والغدر على هذا النحو الشائن ، ونؤكد أن العروبة لا صلة لها بناس يتعشَّقون الحكم وينشدونه بسلاح أجنبى وثوران يخدم كل إنسان إلا العرب والمسلمين .

وقبل أن نتحدث عن معالم الثورة العربية الصحيحة نحب أن نعرف طبيعة الوقائع التى خاضها الملك حسين وأسرته ، وطبيعة المسلك الذى اختطته لنفسها

السياسة الإنكليزية ، وذلك من خلال سطور موجزة لكاتب حديث هو : « ستيفن همسلى » .

ولقد لخصت مجلة « العربى » فصولاً من هذا الكتاب جاء فيها :

« إن بريطانيا التى قطعت على نفسها عهوداً للعرب ، وجدت نفسها فى خضم الحرب مضطرة إلى عقد اتفاقيات سرية مع حليفتيها فرنسا وروسيا ، مما جعلها تقع فى تناقض :

من ذلك معاهدة « سايكس بيكو » السرية فى ١٦ آيار (مايو) ١٩١٦ التى اقتسمت بموجبها بريطانيا وفرنسا وروسيا أملاك الإمبراطورية العثمانية .

وليس هذا هو اسمها الرسمى ، فهى « الاتفاقية السرية بين فرنسا وبريطانيا وروسيا بشأن مناطق آسيا الصغرى » .

وقد نسبت إلى « سير مارك سايكس ، ومسيو جورج بيكو » ظلماً ، مع أنهما لم يكن لهما فيها سوى الصياغة .

وكان أول مَنْ كشف النقاب عن هذه المعاهدة السرية هو « تروتسكى » بعد نجاح الثورة البلشفية ، وذلك فى تشرين الثانى (نوفمبر) من عام ١٩١٧ .

وكان مما قاله ، بعد فضحه لهذه الاتفاقات السرية :

« إننا نلقى بكل المعاهدات السرية فى سَلّة المهملات » .

أما فى بريطانيا فقد كانت جريدة « المانشستر غارديان » أول من نشر خلاصة لهذه المعاهدة فى عدديها الصادرين فى ٢٦ — ٢٨ تشرين الثانى (نوفمبر) من عام ١٩١٧ .

وقد انتهز جمال باشا الفرصة فأرسل مع رسول خاص صورة من المعاهدة إلى كل من الأمير فيصل ، وجعفر باشا العسكرى فى العقبة .

ويقول ت . ى. لورنس فى كتابه « أعمدة الحكمة السبعة » المشهورة : « لقد

كان من حسن الحظ أن بُحْتُ لفيصل بوجود هذه المعاهدة قبل انكشافها ، كما رجوته ألّا يثق بوعودنا » .

ومن الوعود التى تمت فى الخفاء ، والمعارضة مع ما وعدت به بريطانيا للعرب ، وعد « بلفور » و« بلفور » هو وزير الخارجية فى وزارة لويد جورج .

وقد صدر هذا الوعد عن وزارة الخارجية البريطانية فى ٢ تشرين الثانى ١٩١٧ ، أى بعد ثمانية عشر شهراً من قيام الثورة العربية ، وفيه وعدت الحكومة البريطانية بإقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين !

ويذهب المؤرخون مذاهب شتى فى تفسير الدوافع التى جعلت الحكومة البريطانية تعطى مثل هذا الوعد ، ولعل أهمها ـ فى رأيى ـ هو أن بريطانيا أرادت من إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين أن تجعل من فلسطين شوكة تقض مضجع الأمة العربية ، وتشل من تقدمها ، وهى سياسة كان قد صرح بها « كتشنر » .

لماذا هذا التناقض ؟

ترى كيف ارتضت بريطانيا لنفسها أن تقع فى مثل هذا التناقض ؟

والجواب الشافى على هذا السؤال نجده عند المؤلف : فمن ذلك أن الدول فى الحروب لا تؤمن بالأخلاق والعهود ، ولا يهمها سوى كسب المعركة .

وهذا الماريشال « فوش » يقول : « إن الأمر الوحيد المهم فى الحرب هو النتائج » .

ويقول « هوفارت » إن الإنجليز قطعوا على أنفسهم تلك الوعود للعرب ، « لأنهم كانوا فى معركة حياة أو موت » !!

إن « تشرشل » فى الحرب العالمية الثانية حالف الروس ضد الألمان والطليان مصارحاً بأنه فى سبيل أغراضه يتعاون مع الشيطان » .

والمستعمرون فى كل زمان ومكان لا يعرفون إلا منطق المنفعة الخاصة ، فإذا

انضم إلى هذه المصلحة الخاصة التنفيس عن ضغن قديم ، أى النَّيْل من الإسلام وأمته ، فتلك هى الأمنية التى لا يسنح بمثلها الزمان .

من أجل ذلك ، استخدم الإنكليز الملك حسين والمخدوعين به فى بلوغ أمانيهم البعيدة ، ولم يبالوا أن يستميلوه بكلمات لا وزن لها ، ما قيمة رسالة يكتبها رئيس وزرائهم ؟ أو ما قيمة وعد يقطعه على نفسه عميد الاحتلال الأجنبى فى مصر ؟ لا قيمة لهذا كله .

وقد خرج المسلمون من الحرب العالمية الأولى ـ نتيجة هذه السياسة ـ وقد فقدوا ما بقى لهم ـ وتقاسم بلادهم على الجملة الحلفاء الغربيون ، كما ابتلع الروس أغلب الأقطار الإسلامية المجاورة لهم فى آسيا وأوربا .

أما الحرب العالمية الثانية فقد تمخضت عن قيام « إسرائيل » قنطرة العدوان الذى يهدد الشرق كله بين الحين والحين .

النهضة العربية الحديثة :

هنا إحساس عام بين جماهير العرب أنهم تخلّفوا وكان ينبغى أن يتقدموا .

وأن كراماتهم جُرِحَتْ جراحات عميقة ، وكان ينبغى أن يعزوا ويصانوا .

وأن خيراتهم استلبها عدوهم ، وحرمهم منها ، وكان يجب أن يتملكوها وينتفعوا بها .

وأن مبادىء معوجة انتشرت بينهم ، وكان يجب أن يستغنوا برسالتهم عن كل مذهب مستورد وقانون مجتلب .

وقد اضطرم هذا الإحساس فى أفئدة العرب والمسلمين ، وكان مصدر ثورات هائلة ضد الاستعمار الجاثم على صدورهم ، ومصدر حركة دائبة لاستعادة أمجادهم التى فقدوها .

وإنك لتلمح بوادر هذا النهوض وراء النشاط العلمى والأدبى الذى اهتزت به أقطار الشرق العربى والإسلامى فى الآونة الأخيرة .

تلك الأقطار التى وصلت فى مراحل كفاحها إلى حَدٍّ أقلق الغزاة وأجبرهم على ترك البلاد ، كما حدث فى الجمهورية العربية المتحدة وغيرها .

* * *

وبديهى أن تعتمد هذه النهضة الشاملة على ركائز معنوية من الدين الذى آمنت به كثرة العرب وارتبطت به أمام الله والناس .

إن الألوان النفسية لشتى القوميات تختلف اختلافاً كبيراً ، والثقافة ، كما قيل : هى الطابع التى تتميز به أمة عن أمة ، فالطائرة التى تصنعها روسيا قد نجد لها مثيلاً فيما تصنعه أمريكا أو انجلترا .

أما الأغنية التى تصدر عن روسيا أو أمريكا أو انجلترا فهى تختلف فى روحها عن غيرها ، لأنها نابعة من طبيعة الشعب ، معبرة عن آماله وآلامه .

وهذا صحيح ، ولذلك قلنا : إن اللون النفسى للعروبة يفردها عن سواها ويضفى عليها خصائص لا تعدوها إلى غيرها .

وكما تلتقى عدة ألوان لتكوين اللون الأبيض الناصع ، تلتقى جملة عناصر فكرية وفقهية وعاطفية وأدبية وسياسية وتاريخية ، لتكوين ملامح العروبة .

وهذه العناصر لا مصدر لها إلا الإسلام ، ولا وجهة لها إلا وجهته ، ولا صبغة إلا صبغته .

ولذلك فإن تيارات هذه النهضة تجرى قوية غدقة كلما استمدت من ينابيع الإسلام واقتربت من أصوله .

والحق أن العروبة يتألق جوهرها كلما اقترنت برسالتها العظمى ، واستلهمت تاريخها الأول ، وجددت مثلها العريقة .

إنها عندئذ تنبت فى مغارسها ، وتجد من أسباب الخصوبة والنماء ، ما يقرب جناها ويؤكد ازدهارها .

ونحن نودُّ لو تجنبت نهضتنا عيبين : أولهما : قديم من هفوات السابقين ، والآخر حديث من التقليد الطائش للمدنية الأوربية .

نعم ، فمن مواريثنا تقاليد بالية انحدرت إلينا من عهود الانحلال ، ويجب أن تبرأ العروبة منها فى نهوضها المعاصر ، فليس لكل قديم قداسة ، ولا كل ما ألفناه يستحق الحفاوة والحفاظ .

إن المنبع المعصوم من الزلل معروف ، والطريق الموصل إلى الحق ممهد « **والذين يُمسِّكُونَ بالكتابِ وأقامُوا الصلاةَ إنَّا لَا نضيعُ أجرَ المصْلِحينَ** »[1] .

ثم فى حضارة الغرب معالم قريبة من الفطرة ، ومعارف بلغها العقل الإنسانى بعد جهاد نبيل !

هذه ـ بلا ريب ـ ضالتنا ، ونحن أوْلى بها من سوانا .

ولا يجوز أن يفوتنا تحصيلها ، أو نقصر فى ذلك .

أما المباذل التى تسربت إلى هذه الحضارة وشانتها أكثر مما زانتها ، فيحتم علينا أن نتنزه عنها ، وأن نذود فتياننا وفتياتنا عن الإلمام بها ، فإن ذلك يرتكس بنا مسافات إلى الوراء .

* * *

والإسلام الذى شاع فى كيان العروبة شيوع الضوء والحرارة فى قرص الشمس ، هو الركائز المعنوية لكل نهضة يرتقب لها النجاح .

وقد كفل هذا الدين للأمم التى تعتنقه كل المقومات المادية والأدبية التى تحتاج إليها ، فليس هناك مكان قط لاستيراد مبدأ أجنبى ، نكمل به نقصاً عندنا .

---

(١) الأعراف : ١٧٠ .

إن هذا الاستيراد لا يفكر فيه إلا قصار الباع فى فقه التراث الإسلامى ، أولئك الذين ليس لهم من العروبة إلا الزعم الفارغ ، والانتساب اللصيق .

من أجل ذلك نحن نريد أن تتسع دائرة « الحياد الإيجابى » فتتعدى ميدان السياسة الدولية إلى ميدان التربية الخلقية ، والأوضاع الاجتماعية .

فكما حررنا إرادتنا من قيود الاتباع الذليل لأى جبهة عالمية يجب أن نحرر هذه الإرادة فى تكويننا للنشء ، وتنظيمنا للمجتمع ، أى يجب أن نستقى من رحيق الوحى الأعلى ما يروى ظمأنا فى تلك الساحات كلها .

ولن نكون عرباً أصلاء ، إذا تنكرنا للثروة الأدبية الطائلة التى منحنا الإسلام إياها ، أو ارتضينا لأنفسنا التسول الفكرى والتشريعى من هنا وهناك على حين أغنانا الإسلام عن هذا كله .

السناد الروحى للنهضة إنسان مفعم القلب باليقين ، مزدان السيرة بالعفاف ، له غاية سامية يطير إليها بجناحين من جهاد النفس وجهاد الناس .

إنسان يوقر القرآن الكريم ويغالى بتعاليمه سراً وعلانية ويُجِلّ محمداً رسول الله ويستقيم على سننه دون مواربة.

ولن تكون نهضة ما عربية إذا عَرِيَتْ عن هذه الفضائل .

ونحن إنما رفضنا اعتبار ثورة الشريف حسين نهضة عربية ، لأنها دعوة تمت فى أحضان الإنكليز ، وشقت طريقها بسلاحهم ، وتنكرت لمصلحة الإسلام الأولى .

أفتظن أن هؤلاء الثائرين لو نجحوا يصدق فيهم قول الله « **الذين إنْ مكنَّاهم فى الأرضِ أقامُوا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ وأمرُوا بالمعروفِ ونهَوْا عن المنكرِ** » ؟ [1].

أفتظن أن زبانية الاستعمار يصالحون مثل هذه الأهداف !

---

(١) الحج : ٤١ .

النهضة العربية الصحيحة تقوم أولاً وآخراً على أمة وثيقة الصلات بالله وأمره ونهيه ، بادية التوكل عليه وإن خاصمت هؤلاء وأولئك .

وشيء آخر لا مندوحة من تبيانه ، إن السياسة فى منطق زعماء الغرب تكفر بالصراحة والاستقامة ، ولا تبالى بمقاييس الأخلاق ، ولا حدود الدين ، الغاية تبرر الوسيلة ، كما يقولون .

وهذا المنطق لا نألفه فيما ورثنا من شمائل ، ولا نرضاه فيما تعلمنا من دين . الغاية الشريفة لا يوصل إليها بوسيلة شريفة .

وقد تكون الوسائل الشريفة باهظة الثمن صعبة التكاليف ، وربما بدا للعين المجردة أنها مخيبة للآمال بعيدة التحقيق .

ومع هذا كله فلا يجوز لمؤمن أن يلجأ إلى وسيلة مريبة مترخصاً فى ارتكابها بسمو المقصد .

تلك خدعة الشيطان ، وكم وقع فى أحابيله الأغرار .

الوسيلة الشريفة وحدها هى الطريق للغاية الشريفة .

وعندما يُزيِّن لك الوهم اقتراف عمل ما لتبلغ به ما تريد من خير ، فاتَّهِمْ نفسك أو اتهم هدفك ، فإن العمل السيء لا يجيء بخير أبداً .

ونحن إذا بنينا نهضتنا على العروبة والإسلام ، فالطريقة المثلى لجنى غراسنا أن نلتزم الأساليب الشريفة فى عملنا ، مهما لقينا من متاعب ومضايقات .

* * *

ثم لا بأس من المصارحة بأن القومية أداة لا غاية ، إننا لا ندعو الزنوج فى إفريقية ، أو الهنود فى آسيا إلى اعتناق العروبة ، فإن أحداً لا يُكلَّف بترك عنصره وجلْدته ، وإنما يُدعَى أهل الأرض أجمعون إلى اعتناق الإسلام ، الدين الذى يُسوِّى بين الأجناس والألوان ، ولا يعنيه إلا أن تزكو النفوس ، وتصفو السرائر ،

ويتآخى البشر فى معرفة الله ، والقيام بحقه والتأهب للقائه ، ولا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى .

والدعوة إلى الإسلام تنتج من تلقاء نفسها إعزاز العروبة ، وإعلاء شأنها .

ألا ترى الروس يدعون إلى الشيوعية المجردة ، فإذا اعتنقها ناس فى أمريكا أو افريقيا نبت فى أفئدتهم الولاء لروسيا بوصفها أم المذهب ، ودعامته من غير أن يدعو الروس لأنفسهم بكلام طويل أو قصير ؟

كذلك يجب أن نطلق عقائرنا [1] برسالة الإسلام ، وأن نجلو عن جوهره ما ليس منه حتى يخلب [2] بريقه البصائر .

فإذا انشرحت به الصدور فى أقصى المشارق والمغارب كان هذا ذُخْراً لنا عند الله ، ونوراً يسعى بين أيدينا وبأيماننا :

ثم هو إلى جانب ذلك شرف للعروبة أى شرف ، ومجد أى مجد :

« **فاسْتَمْسِكْ بالذِى أوحِىَ إلَيْكَ إنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُستَقِيم ، وَإنَّهُ لَذِكْر لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسئَلُون** » [3].

---

(١) عكائرنا : أصواتنا

(٢) يخلب : يخدع

(٣) الزخرف : ٤٣ ، ٤٤ .